ANCORA IMPARO

الأصول

مارس ١٩٢٩ اعرف نفسك بنفسك : فيثاغورس العدد ١٩

علاقة الموضوعى بالذاتى

—١—

تمهيد

فى القرون الوسطى استعملت كلمة « ذاتى » - Subjective - لتدل على « المادة » - Substance - ولقد أدى هذا الإصطلاح معنى « المادة » فى كتابات « ديكارت » « وسبنوزا » . وكذلك استعملها فى بعض المواضع فى هذا المعنى نفسه الفيلسوف « ريد » - Reid - الانجليزى . ثم استعمل الفيلسوف « وليم أوكام » اصطلاح - Subjective - ليدل على الاشياء الكائنة على استقلال عن العقل . واستعمل اصطلاح - Objective - ليدل على الشئ الكائن فى العقل . ومن هذا نعرف حقيقة ما كان يعنى « ديكارت » باصطلاحه - Realitas objectiva - غير أن الفيلسوفين « كانت » و« نخته » غيرا مدلول الاصطلاحين . فأخذا اصطلاح - Subject - ليدل على العقل

الذى يعرف . واصطلاح - Object - ليدل على الشئ المعروف وأخذ اصطلاح - Subjective - ليدل على الحالات المتغايرة التى تلابس العقل العارف . وأخذ اصطلاح Objective ليدل على الحالات الثابتة الملابسة لطبيعة الشئ المعروف . لهذا نجد أن الاصطلاحين قد حددا فى الفلسفة الحديثة على الصورة الآتية :

Subjective

[1] Of on pertaining to a subject

[2] Expecially , pertaining to , or derived from , one,s own consciousness , in distinction from external observations ; relating to the mind , or intellectual world , in distinction from the outward or material , excessively occupied with or brooding over , on's own internal states

[3] In the philosophy of the mind subjectivedenotes what is to be referred to the thinking subject , the ego , Objective what belongs to the object of thought ; the non- ego

Objective

Of or pertaining to an object , contained in or having the nature or position of , an object outward , external , extrinsic , — an epithet applied to whatever is exterior to the mind , or which is simply an object of thought or feeling and opposed to subjective .

هذا محصل ما وقفنا عليه فى المعاجم الفلسفية ثبته هنا لعلنا نستطيع بعد هذا التحديد أن نجعل موضوعنا الذى نكتب فيه حدودا لا تلتبس مع الحدود التى لابست هذين الاصطلاحين فى القرون الوسطى وفى بدء النهضة الحديثة فى أوروبا

ولا يفوتنا أن نذكر أن العرب لم يعرفوا لهذين الاصطلاحين حدودا معينة فى صور الفلسفة التى وصلت اليهم أو نقلت عنهم مع أنهم كانوا فى أواخر أيام مدنيتهم فى حدود القرون الوسطى . ولعل السبب فى هـذا أن النهضة فى أوروبا لم تدرك العرب الا بعد أن كانوا قد انصرفوا عن العمل العلمي والانتاج العقلى ، فلم يأبهوا للحلية التي قامت من حولهم فى أوروبا الوسطى

نمهد بهذا لأننا كتبنا فى (عصور) فبراير الماضى مقالا فى «حدود المعرفة وتقسيمها على مقتضى كفايات العقل الانسانى» أحطنا فيه بالحدود التى يفرضها العقل فى ثوبه الحديث للمعرفة الانسانية ونحن ان عقبنا اليوم بهذا المقال الذى نحاول فيه أن نحد علاقة الموضوعى بالذاتى، فانما نعقب به ليكون حلقة أخرى من سلسلة ابحاث مستقلة يخرج منها الباحث فى النهاية بصورة محدودة تتحيز فى ذهنه عن الفروق الكائنة بين المدركات والمحسوسات، كما كانت تتركز علاقاتها فى العقل الانسانى خلال العصور الاولى وكما هي مرتكزة فيه اليوم

منه لم يقتض الاختلاف بين الفلسفتين القديمة والحديثة على تغاير فى الاساليب الفكرية أو المقاييس العقلية التى كانت تتناول حقائق الاشياء وقيمها الواقعية والعقلية لا غير بل تعدى الاختلاف كما رأينا من قبل الى المصطلحات قبل من معانيها وغير من مدلولاتها وليس من قصدنا أن نقول بأن مدلولات المصطلحات القديمة قد تغيرت من غير أن يكون لتطور الافكار ذاتها أكبر سلطان على هذا التغيير فان اتجاه الفكر فى نواح خاصة كان سببا من أن يجعل من تلك المصطلحات أدوات جديدة يتخذها ذريعة للتعبير عن حقائق كونية أو معقولات، قد تؤدي لدى الظاهر معان غير تلك المعانى التى اصطلح عليها فى مختلف فروع العلم والمعرفة عامة

فان كلمة Subject مثلا أخذت فى النحو على أن تكون فاعلا وكلمة Object أخذت على أن تكون مفعولا وكذلك تجد فى الكلام العادى أن كلمة Subject أخذت لتدل على «موضوع» البحث، كما أخذت كلمة Object لتدل على «الاشياء» مجردة عن كل تحديد ولقد رأينا كيف أن هذين الاصطلاحين قد أديا من الفلسفة المدرسية خلال القرون الوسطى، ومن مفتتح النهضة الحديثة منذ ديكارت معان ودلائل على معقولات تختلف كل الاختلاف عن المعانى والمدلولات التى تؤديانها فى الفلسفة الحديثة

وإذا تتبعنا تاريخ تطور هذين المصطلحين وما أديا من المعانى خلال الازمان المتتالية، خرجنا من ذلك ببحث طريف لا نقع فيه على اختلاف مناحى اللغة وما تتطور اليه مفرداتها من المعانى المختلفة، بل نعثر خلاله على تدرج الفكر نحو تحديد المعانى التى تؤديها المصطلحات على مقتضى ما يقوم فيه من حاجات للتعبير عن فكرات

خاصة أو معقولات يكونها التدرج فى الوقوف على حقائق الطبيعة والحياة.

النظام الكونى عالم الموضوع

قد يلتبس على البعض ، حتى مع ما ادلينا به من شرح ، التفريق بين الموضوعى والذاتى . فالذين يقولون مثلا ، ان كل ماخرج عن ذاتك فهو موضوعي ، يخطئون . لأن الذات موضوع لا شيء مجرد ولهذا نجد أن تحديد الفرق بين الذاتى والموضوعى يحتاج الى شيء غير قليل من الاستبصار وطول التأمل

والواقع أن الجرى على هذين الاصطلاحين فيه شيء غير قليل من الغموض لا مناص منه ولا حيلة فيه . وليس ذلك براجع الى شيء فى مدلول ، الموضوعى ، بل فى مدلول الذاتى ، فان اصطلاح ، الذاتى ، يؤدى فى العربية على الاقل ـ الى لبس وابهام . فان ذاتك ، موضوع ينطبق عليه كل ما ينطبق على بقية الذوات ـ ناطقة وغير ناطقة ـ حية اوجامدة ـ التى يتضمنها هذا الكون الفسيح ، ومن هذا يأتى اللبس ويقوم الابهام . غير أنك اذا اردت أن تتكب هذا اللبس ففرق بين ، ذاتك ، باعتبارها ، موضوعاً ، وبين ما يتعلق بذاتك ، باعتبار ان هذه المتعلقات اشياء مجردة . ولاجرم ان ذاتك شيء وما يتعلق بها شيء آخر . وهنا يقع التفريق الحقيقى بين موضوع ذاتك وبقية الموضوعات كلها ، وبين ما يتعلق بذاتك من المجردات

ولنرجع الى سبينوزا قليلا ، لعلنا نستطيع أن نتخذ من فلسفته شيئا ينير لنا سبيل التفرقة بين الذاتى والموضوعى . فانه لما عجز عن ان يعرف الله ، تعريفا خارجا عن اوصاف الذاتية البشرية وخصائصها قال بان الله ، امتداد وفكر . غير انه فى الحقيقة لم يعرف الله ، كما قال دكتور ، مارتينو ، بل عرف ، الانسان ، احسن تعريف . فالانسان فى الواقع امتداد وفكر : فامتداده واقع فى عالم الموضوع . وفكره واقع فى عالم الذات

الانسان مظهر الطبيعة الاوحد الذى يجتمع فيه الذاتى والموضوعى بل نقول بانه لو لا الانسان لما كان فى العالم من شيء يستطيع أن يفرق بين ما يقال له الموضوع ، وخصائص عقلية ، لانعلم بالتحقيق مقدار علاقتها بناحيتها الموضوعية ندعوها الذاتيه . هذا على مقدار ما لدينا من علم بنظام الكون وأحيائه فى الحالة الحاضرة

من هذا التحديد تستطيع أن نفرق بسهولة بين الموضوعي والذاتي، ولهذا نبدأ البحث في النظام الكوني باعتباره عالم الموضوع و باعتبار ان الانسان من حيث هو امتداد احد مظاهر تلك الموضوعية الشاملة ونبدأ بالتعريف فنقول

« الموضوعي على اطلاق القول يتضمن كل شيء يقع في عالم الامتداد والذاتي يتضمن كل ما يقع في عالم الفكر »

او نقول : « الموضوعي عالم اللانفس - والذاتي عالم النفس »

غير اني افضل التعريف الاول لما في كلمة « النفس » من الاستغلاق على كل من يريد أن ينظر في النظام الكوني نظرة موضوعية صرفة في حين ان الفكر ولو انه يعادل اصطلاح النفس من حيث القيمة . ورأيت انه اصح تعبيرا عن حالات يشعر بها كل فرد شعورا دائما . وكذلك نجد ان الفكر يعبر اقوم تعبير عن كل الحالات التي تختص بها النفس ، اللهم الا اذا اراد البعض أن يحصر اصطلاح الذاتي في دائرة ضيقة فيجعله قاصرا على فكرة الانانية Egoism وهذا المعنى قد قصر عن التعبير عن كل المناحي التي يقصدها الفلاسفة الآن من اصطلاح « ذاتي »

فاذا رجعنا الى بحث النظام الكوني باعتباره شيء الموضوع وقفنا على اشياء لا نستطيع مهما قلبنا وجوه الرأي فيها الان نسلم بان تحديد موقعها من العالمين الموضوعي والذاتي غير هين . لديك في النظام الكوني فرض وجود « الاثير » مثلا او فرض وجود الجاذبية الكونية - او فرض : انحناء المكان : او فرض البعد الرابع في النسبية : فعلى اي من العالمين تقع هذه الاشياء ؟ يعتقد العلماء والفلاسفة ان هذه الفروض ضرورية لتفسير ظاهرات كونية لا مفسر لها بغير ذلك وكذلك يسلم العقل تسليم ضرورة بوجود مبدأ أو مبادئ يرجع اليها النظام أو أي جزء منه . فاذا « فرضنا » بأن هذا المبدأ هو الاثير أو الجاذبية أو انحناء المكان أو البعد الرابع في النسبية ، لم نخرج من ذلك بأكثر من أن هذه فروض « ذاتية » نعلل بها أشياء في عالم « الموضوع »

فاذا صح الفرض وثبت بالاساليب العلمية خرج عن « الذات » والحق بالموضوع . أما إذا أعوزه البرهان على الاساليب العلمية ، ظل متراوحا بين العالمين ، بين أنه صحيح من الوجهة الموضوعية ، وبين أنه معتقد قائم على اقتناع أو مرجحات ذاتية